

التحرير والتنوير

مناسبة هذه الفاتحة لما بعدها من السورة بيان أن الكافرين محقوقون بأن تقا تلوهم لأنهم شذوا عن جميع المخلوقات فلم يسبحوا [1] ولم يصفوه بصفات الكمال إذ جعلوا له شركاء في الإلهية . وفيه تعريض بالذين أخلفوا ما وعدوا بأنهم لم يؤدوا حق تسبيح [1] لأن [1] مستحق لأن يوفى بعهده في الحياة الدنيا وأن [1] ناصر الذين آمنوا على عدوهم .

وتقدم الكلام على نظير قوله (سح [1]) إلى (الحكيم) في أول سورة الحشر وسورة الحديد .

وفي إجراء وصف (العزيز) عليه تعالى هنا إيماء إلى أنه الغالب لعدوه فما كان لكم أن ترهبوا أعداءه فتفروا منهم عند اللقاء .

وإجراء صفة (الحكيم) إن حملت على معنى المتصف بالحكمة أن الموصوف بالحكمة لا يأمركم بجهاد العدو عبثا ولا يخليهم يغلبونكم . وإن حملت على معنى المحكم للأمور فكذلك .

(يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون [2] كبر مقتا عند [1] أن تقولوا ما لا تفعلون [3]) ناداهم بوصف الإيمان تعريضا بأن الإيمان من شأنه أن يزغ المؤمن عن أن يخالف فعله قوله في الوعد بالخير .

واللام لتعليل المستفهم عنه وهو الشيء المبهم الذي هو مدلول " ما " الاستفهامية لأنها تدل على أمر مبهم يطلب تعيينه .

والتقدير : تقولون ما لا تفعلون لأي سبب أو لأية علة .

وتتعلق اللام بفعل (تقولون) المجرور مع حرف الجر لصدارة الاستفهام .

والاستفهام عن العلة مستعمل هنا في إنكار أن يكون سبب ذلك مرضيا [1] تعالى أي أن ما يدعوهم إلى ذلك هو أمر منكر وذلك كناية عن اللوم والتحذير من ذلك كما في قوله تعالى (قل فلم تقتلون أنبياء [1] من قبل) في سورة البقرة .

فيجوز أن يكون القول الذي قالوه وعدا وعدوه ولم يفوا به . ويجوز أن يكون خبرا أخبروا به عن أنفسهم لم يطابق الواقع . وقد مضى استيفاء ذلك في الكلام على صدر السورة .

عن وكناية الرمز بطريق أحد يوم فعلوه ما مثل في الوقوع من تحذيرهم عن كناية وهذا A E اللوم على ما فعلوه يوم أحد بطريق التلويح .

وتعقيب الآية بقوله (إن [1] يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا) إلخ . يؤذن بأن اللوم

على وعد يتعلق بالجهاد في سبيل [1] . وبذلك يلتئم معنى الآية مع حديث الترمذي في سبب

النزول وتندحض روايات أخرى رويت في سبب نزولها ذكرها في الكشاف .

وفيه تعريض بالمنافقين إذ يظهرون الإيمان بأقوالهم وهم لا يعملون أعمال أهل الإيمان بالقلب ولا بالجسد . قال ابن زيد : هو قول المنافقين للمؤمنين نحن منكم ومعكم ثم يظهر من أفعالهم خلاف ذلك .

وجملة (كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون) بيان لجملة (لم تقولون ما لا تفعلون) تصريحاً بالمعنى المكنى عنه بها .

وهو خبر عن كون قولهم (ما لا تفعلون) أمراً كبيراً في جنس المقت .

والكبر : مستعار للشدة لأن الكبير فيه كثرة وشدة في نوعه .

و (أن تقولوا) فاعل (كبر) .

والمقت : البغض الشديد . وهو هنا بمعنى اسم المفعول .

وانتصب (مقتا) على التمييز لجهة الكبر . وهو تمييز نسبة .

والتقدير : كبر ممقوتا قولكم ما لا تفعلونه .

ونظم هذا الكلام بطريقة الإجمال ثم التفصيل بالتمييز لتهويل هذا الأمر في قلوب السامعين لكون الكثير منهم بمطنة التهاون في الحيلة منه حتى وقعوا فيما وقعوا يوم أحد . ففيه وعيد على تجدد مثله وزيد المقصود اهتماماً بأن وصف المقت بأنه عند الله أي مقت لا تسامح فيه .

وعدا عن جعل فاعل (كبر) ضمير القول بأن يقتصر على (كبر مقتا عند الله) أو يقال : كبر ذلك مقتا لقصد زيادة التهويل بإعادة لفظه وإفادة التأكيد .

و (ما) في قوله (ما لا تفعلون) في الموضعين موصولة وهي بمعنى لام العهد أي الفعل الذي وعدتم أن تفعلوه وهو أحب الأعمال إلى الله أو الجهاد . فاقترض الآية أن الوعد في مثل هذا يجب الوفاء به لأن الموعود به طاعة فالوعد به من قبيل النذر المقصود منه القربة فيجب الوفاء به .

(إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص [4]) هذا جواب على

تمنيهم معرفة أحب الأعمال إلى الله كما في حديث عبد الله بن سلام عند الترمذي المتقدم وما

قبله توطئة له على أسلوب الخطب ومقدماتها